«التاريخ اليهودي»: رؤية نقدية ومخطط أولي

د. عبد الوهاب المسيري

تتواتر كلمة «تاريخ» في الكتابات الصهيونية. فالصهيونية تدافع عن فكرة القومية اليهودية، وتصدر عن تصور ان هذه القومية لا تستند الى لغة مشتركة او اقتصاد مشترك، وانما تستند، اساساً، الى تجربة تاريخية وتراث تاريخي مشترك؛ أي ان الصهيونية رؤية للتاريخ في الدرجة الاولى. ولكن مصطلح «تاريخ» حينما يستخدم في معظم الكتابات الصهيونية، وغير الصهيونية، فانه يحمل معاني عدة متداخلة تؤدي الى كثير من الخلط والتداخل. وقد يكون من المفيد، للوصول الى شيء من الوضوح بخصوص هذه القضية، ان نميز، ابتداء، بين تاريخ اليهودية، من جانب، وتواريخ الاقليات اليهودية، من جانب آخر. فتاريخ الهند والاقوام الهندية ليس هو تاريخ الهندوكية. وتاريخ الصين ليس هو تاريخ الكونفوشية. وتاريخ اوروبا في العصور الوسطى لا يمكن تفسيره، بأكمله، وبكل تركيبه، بالعودة الى النسق الديني السائد في ذلك الوقت.

فتاريخ المسيحية (كدين وفلسفة وفكر) ليس هو الشيء ذاته مثل تاريخ المسيحيين، على الرغم من ارتباط الواحد بالآخر. ولعل اختلاف تاريخ المسيحية عن تاريخ المسيحيين يظهر في الحملات الصليبية، حين قام الغرب الاوروبي بالهجوم على الشرق باسم المسيحية، فنهب القسطنطينية، عاصمة المسيحية الارثوذكسية، وقام بالهجوم على فلسطين، ولم يفرق، في معظم الاحيان، بين مسلم ومسيحي ويهودي.

وتاريخ اليهودية، كعقيدة وفكر وشيع وانقسامات، يختلف عن تاريخ اليهود، على الرغم من ارتباطهما الوثيق، في بعض الأحيان. فتاريخ مملكة الخزر واشتغال اليهود بالتجارة والربا في اوروبا، في العصر الوسيط، وتحالف الصهيونية مع الاستعمار، ثم مع النازية؛ هذه كلها ليست جزءاً من تاريخ اليهودية، وانما جزء من تاريخ الجماعات والأقليات اليهودية. ويظل تارخ اليهودية هو تاريخ هذه العقيدة الدينية، ونحن نتبع هذا التمييز بين التاريخين. بتمييزنا هذا نتبع منهجاً علمياً، اذ يظل التاريخ هو نتاج تفاعل عناصر عدة، من بينها الدين، قد يصبح واحد منهما، أو اكثر، هو العنصر الحاسم والاكثر ثقلاً في مرحلة ما.

ولكن هذا التمييز بين تاريخ اليهود وتاريخ اليهودية قد غاب عن الكثيرين، نظراً لوضع خاص تتميز به اليهودية، اذ أنه، حسب التصور الديني اليهودي، اختار الله «الشعب

شؤون فلسطينية ، العدد ١٦٤ ـ ١٦٥، تشرين الثاني/كانون الاول (نوفمبر/ديسمبر) ١٩٨٦